

دلائل الإعجاز

نَسَقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ) ففيها حذفُ مفعولٍ في أربعةِ مواضعٍ إذ المعنى : وجدَ عليه أمةً منَ الناسِ يسقونَ أغنامَهم أو مواشيهم وامرأتينِ تزدودانِ غنمهما وقالتا : لا نَسَقِي غَنَمَنَا فسقى لهما غنمهما . ثم إنه لا يخفى على ذي بَصَرٍ أنه ليس في ذلك كَلَّه إلا أن يُتركَ ذكرُهُ ويؤتى بالفعل مُطلقاً . وما ذاك إلا أنَّ الغرضَ في أن يعلمَ أَنه كان منَ الناسِ في تلك الحال سَقِيٌّ ومن المرأتينِ ذَوْدٌ وأنهما قالتا : لا يكون من ذَا سَقِيٍّ حتى يُصدرَ الرَّعَاءُ وأنه كان من موسى عليه السلام من بَعَدَ ذلك سَقِيٌّ . فأما ما كان المسقى غنماً أم إبلاً أم غيرَ ذلك فخارجٌ عن الغرضِ ومُؤهِمٌ خلافه . وذاك أنه لو قيل : وجدَ من دونهم امرأتينِ تزدودانِ غنمَهما جاز أن يكونَ لم يُنكرِ الذَّوْدُ من حَيْثُ هو ذَوْدٌ بل من حيثُ هو ذَوْدٌ غَنَمٍ حتى لو كان مكانَ الغنمِ إبلاً لم يُذكرِ الذَّوْدُ كما أنك إذا قلتَ : ما لك تمنعُ أخاك كنتَ منكراً المنعَ لا من حيثُ هو مَنعٌ بل من حيثُ هو منعٌ أخٍ فاعرفهُ تَعْلَمُ أَنَّكَ لم تجدَ الحذفَ المفعولَ في هذا النحو من الرِّوْعَةِ والحُسْنِ ما وجدتَ إلاَّ لأن في حذفه وتركه ذكره فائدةً جليلةً وأنَّ الغرضَ لا يَصِحُّ إلاَّ على تركه . وممَّا هو كَأَنَّهُ نوعٌ آخرٌ غيرَ ما مضى قولُ البحتري - الطويل - : (إذا بَعُدَتْ أَبْـلَاتٌ وإن قَرُبَتْ شَفَاتٌ ... فَهَجَرَانُهَا يبلي ولُقيَانُهَا يَشْفِي) .

قد عُلِمَ أَنَّ المعنى : " إذا بعدتْ عني أَبْـلَاتُنِي وإن قُرِبَتْ مِنِّي شَفَاتُنِي " إلا أَنَّكَ تجدُ الشعْرَ يَأْبَى ذَكَرَ ذلك ويوجبُ اطِّراحَه . وذاك لأنه أرادَ أن يَجْعَلَ البلى كَأَنَّهُ واجبٌ في بَرْعَادِهَا أن يوجبَه ويجلبَه وكَأَنَّهُ كالطَّبَّيعة فيه . وكذلك حالُ الشِّفَاءِ معَ القُرْبِ حتى كأنه قال : أَتَدْرِي ما بَعَادُهَا هو الداءُ المُضْئِي وما قُرْبُهَا هو الشِّفَاءُ والبُـرءُ من كلِّ داءٍ . ولا سبيلَ لك إلى هذه اللطيفةِ وهذه النكتةِ إلاَّ بحذفِ المفعولِ البَتَّةَ فاعرفهُ . وليس لنتائجِ هذا الحذفِ أعني حذفِ المفعولِ نهايةَ فإنه طريقٌ إلى ضُرُوبٍ من الصَّنْعَةِ وإلى لطائفَ لا تُحصى . وهذا نوعٌ منه آخرٌ : اعلمُ أَنَّ هَاهُنَا باباً من الإضمارِ والحذفِ يُسمَّى الإضمارَ على شريطةِ التفسيرِ . وذلك مثلُ قولِهِم : أَكْرَمَنِي وَأَكْرَمْتُ عَبْدًا . أردتَ : أَكْرَمَنِي عَبْدٌ